مجلة علوم التربية

دورية مغربية فصلية متخصصة

أحمد أوزي — عبد الله الخياري

إسماعيل علوي — لحسن عبود

جميل حمداوي — رشيد كهوس

رشيد جرموني — محمد بلهادي

ديرار عبد السلام — محمد طمطم

ضرضاري التهامي — المصطفى الحسناوي

أخ العرب عبد الرحيم — عبد العزيز خلوفة

العدد الثالث والخمسون - أكتوبر 2012

فهم التربية:

مقاربة مصطلحية

طوماس جوردن
ترجمة: أخ العرب عبد الرحيم

طوماس جوردن ولد سنة 1918 في الولايات المتحدة الأمريكية وتوفي سنة 2002، رشح لجائزة نوبل ثلاث مرات، وله ميدالية ذهبية من مؤسسة علم النفس الإنساني، مفاهيمه التربوية توظفها 43 دولة، ومن أهم مفاهيمه: تدبير الاختلاف من خلال المفهوم: رابح-رابح Gagnant-Gagnant، أو بدون خسارة Sans perdant.
وهو من تلاميذ كارل روجر Carl Rogers وهو ثاني أهم عالم النفس الإكلينيكي بعد فرويد.

يعد مصطلح التربية مثار جدال واسع، حيث تنوعت فيه الآراء واختلفت التوجهات، حتى وصلت حد التناقض والغموض، وبالتالي وجب توضيح المصطلحات المستعملة في هذا العلم المهم لتقريبها لفهم الآباء والمدرسين والمهتمين.

الفرق بين التأديب discipline والترويض discipliner :

إن التأديب سلوك، ونظام، وقواعد ملائمة تصان من قبل مدرب أو مؤدب مثلا «آداب القسم» أو «آداب الفريق».

ونادرا ما يثير هذا المصطلح جدالا كبيرا لأن الجميع يعتبرونه مرادفا لـ: «النظام، الترتيب، التعاون، المعرفة، احترام القواعد والإجراءات القانونية واحترام حقوق الغير» في حين أن روّض discipliner تدل على معنى: «الأمر والوجوب والطاعة لـ، والسيطرة، وأكره وخضع» مثل: «ضبط القسم»: أي السيطرة عن طريق فرض المراقبة عليه.

إن لحظة مناقشاتنا حول «التأديب» دائما نفترض بأن الوسيلة الوحيدة لتحقيقه في المنزل أو المدرسة هو ترويض الأطفال وإخضاعهم للنظام إما بالهيمنة وإما بالإصلاح وإما بالعقاب.

لكن في الواقع، اكتشفت أن ترويض الأطفال طريقة غير مجدية لكي يعم النظام في البيت أو في المدرسة، فمجموعة من الدراسات تؤكد أن «النظام يضمحل عندما يغادر المدرس (المروض) القسم، أو عندما يدير وجهه صوب السبورة للكتابة، والسيناريو نفسه نجده في البيت ».

بالإضافة إلى ذلك، إذا كانت إرادة ترويض الأطفال لدى الآباء والمدرسين تفرض عليهم استخدام القوة في صورة عقوبات، أو اعتداءات، فالأطفال يضطرون لمواجهتهم، والثورة عليهم، ومقاومتهم، والانتقام منهم، والكذب عليهم، فجل هذه الوسائل لديهم مشروعة من أجل تجنب القمع أو الإقصاء أو التعنت والعناد.

ولقد أظهرت مجموعة من الأبحاث أن العقوبات تجعل من الأطفال عنيفين وعدوانيين، فالأطفال الذين يتعرضون باستمرار للعقوبات يصيرون عنيفين وسريعي الإثارة، وأكثر عدوانية اتجاه أصدقائهم، عكس الأطفال الذين لا يعاقبون، أو يعاقبون بنسبة أقل داخل البيت.

إن الآباء والمدرسين الذين يرغبون في أطفال منظمين ومتعاونين وخدومين سواء في البيت أم المدرسة، لا يدركون ولا يستطيعون تحديد هل ضبط وترويض الأطفال أحسن وسيلة أم ترسيخ قيم الآداب لديهم رغم أنهم يصبون إلى هذا الأخير.

الفرق بين علّمEnseigner وضبط Contrôler:

يقوم الفعل «هذّب وربّى» Eduquer على « درّب، وكوّن، علّم، وأخبر، ونوّر، وقاد، وألّف (جعله مألوفا) . أما الفعل ضبط Discipliner، أو Contrôler فيقوم على: «أمر، قوّم، وجّه، راقب، دبّر، ونظّم، وألزم، وفرض، قيّد، منع، أكره، كبث، عاقب، وبّخ، لام، نقد، اقتص».

فعندما يأمر الآباء والمدرسون ويفرضون، وخاصة عندما يقتصون يرتفع صوتهم، ودرجة توترهم وضغطهم الشرياني، وهذا غير صحي للآباء والمدرسين، وغير مفيد للأطفال، لكن أغلبهم متشبثين ومؤيدين لهذا الشكل من التربية.

ولقد أصر مجموعة من المؤلفين المتأثرين بمجموعة من الاعتقادات الشعبية، على حقيقة مفادها أن الأطفال يحتاجون ويتوقون للضبط، وأنهم سيعانون من اللأمان وللاحب، إذا تمت مراقبتهم، وأنهم سيتحولون إلى شياطين صغار.

الفرق بين التأثير Influencer والهيمنة Dominer:

إن الاختلاف بين الهيمنة على الأطفال والتأثير عليهم محسوم فيه. ومن البديهي أن الآباء والمدرسين يودون التأثير على الأبناء، لكي يتركوا آثارا إيجابية في حياتهم، لكن في ظل حرصهم واندفاعهم يسقط معظمهم في شرك فرض الحدود والقيود، وإعطاء الأوامر، وإجبارهم على احترامها، بدل توظيف مناهج وطرق قادرة على التأثير بها على الأطفال.

وجل هذه المناهج الضيقة والمقيدة ليس لها أي تأثير على الأطفال بقدر ما تفرض وتكره وترغم.

فعندما يرغم الطفل على فعل شيء فهو في الحقيقة لم يتأثر، حتى لو استسلم فذلك نتيجة خوفه من العقاب.

إذن من أجل تأثير عميق ودائم في حياة

الأبناء وجب على الكبار التخلي عن الطرق المقيّدة Restrictives التي تنبني على القوة والسلطة، واختيار الطرق البنّاءة والثقافية Instructives والتي تستند على التأثير، وتساهم في تحويل الميول الطبيعية للأطفال المتمثلة في مقاومة التغييرات وتحثهم على تبديل سلوكهم من تلقاء أنفسهم، وكذا احترام الاتفاقات المبرمة، وتنتمي لديهم ملكة احترام الآخرين.

يتحقق التأثير على الأبناء لوقت أطول لحظة تخلينا عن هاجس الهيمنة عليهم، والعكس صحيح: فعندما يكثر هاجس الهيمنة بالقوة يقل تأثيرنا في حياتهم، لماذا؟ لأن المناهج المبنية على القوة والسلطة تدفع الطفل إلى المقاومة (يرفض الامتثال)، وإلى الثورة (يقوم بعكس ما طلب منه)، أو إلى الكذب (حيث يقول إنه قام بالفعل وهو لم يقم به).

الفرق بين التأديب الذاتي Autodiscipline والتأديب مفروض Imposée:

نميز بين شكلين من التأديب: الأول مفروض من الخارج، والثاني منبعث من داخل الشخص. والأشخاص الذين يمتلكون تأديبا- ذاتيا يجدون محفزاتهم في داخلهم، عكس الأشخاص المطيعين بسبب التأديب- المفروض فهم يبحثون عن محفزاتهم في الخارج.

إن معظم الآباء والمدرسين يعتقدون أن الأطفال ينضبطون عندما تفرض عليهم ضغوط من الخارج، وهذه الآراء المتداولة تظهر لنا أن التأديب- الذاتي لن يحصل بهذه الطريقة، تذكروا معي المثل القديم «عندما تغيب القطة ترقص الفئران»، فعندما يغيب المهيمنون الكبار Les dominateurs، تقل سيطرة الأبناء على أنفسهم، فيفعلون ما منعوا منه.

وغالبا ما يتحول الأطفال الموضوعون تحت النظام القسري للوالدين إلى أشخاص جانحين ضائعين، وخانعين وخائفين، ومتمردين في المراهقة، وتكون ردة فعلهم قاسية نحو سيطرة الكبار، ولا يتمالكون أنفسهم، ويغيب لديهم التأديب المنبعث من الداخل، ولا يترسخ في ذهنهم التأديب- الذاتي.

أما الأطفال الذين يتمتعون بالتأديب- الذاتي، فهم أولئك الذين دائما يتمتعون بقدر من الحرية. لماذا؟

لأننا نمنحهم الفرصة ليقوموا بخياراتهم الخاصة، وأخذ قراراتهم بأنفسهم، فهم يسيطرون على تصرفاتهم التي تزعج الكبار لحظة فعل الكبار الشيء نفسه، وهم محضوضون لأنهم وضعوا القوانين برفقتهم.

سوء التفاهم في فهم القيود Des limites:

يعلم الآباء والمدرسون كل ما هو ضروري لبناء قوانين ضابطة مع الأطفال لكن طريقة إنشاء بهذه القيود مهمة جدا. فأنصار

التأديب-المفروض يؤكدون أن الأطفال بحاجة إلى قيود، ويروجون لهذه الأفكار.

أجل من الضروري أن يشعر الأطفال أن سلوكهم خاضع لقوانين، لكن الأبناء يتصرفون بطرق مختلفة عندما تفرض عليهم القيود من قبل الكبار الذين حددودها بمفردهم.

فعندما يشارك الأبناء في اتخاذ القرارات حول الاتفاقات والقوانين يحترمونها فعلا، ويحترمون كذلك التزاماتهم لحظة طلب الكبار من الصغار آراءهم حول تلك القوانين قبل إنشائها.

يحتاج كل من الأسر والأقسام لقواعد دقيقة، وإجراءات محددة، وإذا منحنا فرصة للأطفال سيستطيعون التعاون مع آبائهم ومدرسيهم في إعداد القوانين وخطوط السير التي ستوجه سلوكهم.

في الحقيقة إن الآباء الذين يمنعون لأبنائهم فرصة المشاركة في إنشاء القوانين العائلية، سيجدون أنفسهم في كنف قوانين متعددة ومحترمة من قبل للجميع.

والذي يخلق الاختلاف، هو من أنشأ القوانين والحدود:

الكبار لوحدهم أم الكبار والصغار.

هل يجب أن أكون قاسياSévère أم متسامحاIndulgent:

جل الآباء بين الفينة والأخرى يطرحون سؤالا محيرا: هل يجب أن أكون قاسيا أم متسامحا؟ والمدرسون أنفسهم مترددون بين التظاهر بالقسوة أو اللين، وبين التسلط أو التسامح.

وهذا مأزق يواجهه الآباء والمدرسون كل يوم.

لكن إذا أمعنا النظر نجده واهيا، فالمشكل بوضوح يكمن عندما نسعى إلى الاختيار بين الاثنين فإننا في الحقيقة نفكر بطريقة (أبيض، أسود).

نادرا ما أصادف آباء أو مدرسين يدركون أنه من غير النافع أن نختار بين هذين الموقفين، لأنه في الواقع يوجد موقف ثالث ينبني على أن لا نكون متسلطين ولا متساهلين، ولا قاسيين ولا متسامحين.

هل هذا يدل على منطقة وسطى بين النوعين السابقين؟ لا.

هذا الموقف الثالث لا يوجد البتة في نطاق: القسوة-التسامح!

فالأب أو المدرس المتسلط يتولى زمام السلطة، في حين أن الأب أو المدرس المتساهل Permissif يجيز للأطفال أن يمارسوا تلك السلطة.

والآباء والمدرسون المتسلّطون يسيطرون ويتحكمون، بينما الآباء والمدرسون المتساهلون يتركون الأطفال يهيمنون ويتحكّمون.

أغلب المدرسين في المدارس يتولون زمام السلطة ويلحون على إذعان التلاميذ لهم، أما المدرسون المتساهلون الذي لا يسيطرون ولا يلزمون: فأقسامهم دائما كثيرة الضجيج، والاضطراب، وغير مثمرة.

لا الأب ولا المدرس يرغب في تجريب نتائج هذا (التساهل الفوضوي) وفي الحقيقة، الأطفال أنفسهم لا يتذوقون طعم كثير من المأذونية داخل المنزل أو المدرسة. لم أنس ذلك اليوم الذي جاءت فيه ابنتي إلى البيت بعد يومها الأول للدخول المدرسي، وقالت: «يا لها من سنة رهيبة، لدي أستاذان متسلطان، وأستاذان متساهلان !».

إن أغلب الأبناء يعانون من الآثار الجانبية للتسامح، ويحسون بالذنب لأنهم يربحون الدعوى والقضية دائما (لا يصدر في حقهم أي حكم)، وقد يشتكون في حب الآباء لهم، لأن سلوكهم يصعب تقبله أو محبته.

توجد طريقة أفضل من (المتسلط) و(المتسامح)، وهذه المقاربة الجديدة مختلفة وتستوجب من الكبار تغيير رؤيتهم للأطفال، ولطريقة معاملتهم.

عندما سيدرك الآباء والمدرسون أن هناك منهجية بديلة وفعالة، سوف لن ينقادوا لمناقشات بيزنطية حول التأديب- المتراخيRelâchée أو الضيقSerrée وحول القاسي أو المتساهل.

ولحظة اطّلاعهم على عدم فعالية الهيمنة عبر القوة، سوف لن ينخدعوا بالوعود الخلابة المؤدية للتأديب الصارم داخل عائلاتنا وفي مدارسنا.

بالإضافة إلى ذلك عندما يدركون مخاطر التسامح سوف لن يتأثروا بوعود الذين يوصون بالحرية المطلقة لأطفالنا وتلامذتنا.

الدلالات المتنوعة لكلمة (سلطة) Autorité:

تطفو كلمة (سلطة) إلى السطح كلما طرح سؤال عن (التأديب). فأنصار مبدأ (التأديب مهما كلف الأمر à-tout-prix) يحثون الآباء والمدرسين على تطبيق سلطتهم، ويجزمون بأن الأطفال والأبناء يحتاجون إلى تلك السلطة، ويروجون لفكرة مفادها أن الأطفال سعداء بها.

وفضلا عن ذلك، هم آسفون للتفكك الذي أصاب سلطتهم سواء في البيت أم في المدرسة، ويودون أن يحترم أطفال الزمن الحالي السلطة بقدر ما احترمها أطفال الزمن الماضي.

يقول «دوبسن Dobson):«في غياب السلطة، تقع لا محالة، البيوت والأقسام في الهباء، والفوضى، واللانظام»[1].

ويؤكد أنصار (التأديب-مهما كلف الأمر) على أن الأطفال يحترمون السلطة ويرغبون فيها، ويطمئنون إليها.

نتساءل لماذا في هذه الحالة ينشغلون كثيرا، عندما يثور الأطفال ضد سلطة الآباء والأساتذة؟ ولماذا ينتقدون «تفكك السلطة»؟ فهذا دليل على أن ذلك النوع من التأديب لا يُنتج دائما احترام وخضوع الأبناء.

سنميز هنا بين أربعة أنواع من السلطة:

السلطة الناجمة عن الخبرة L'expérience:

هذا النوع من السلطة يتولد من خبرة الشخص، ومعرفته، وقدرته وحكمته مثال: ذلك الشخص لديه تحكم autorité في القانون الدولي، هنا نتكلم عن التحكم والسلطة المكتسبةacquise.

في عائلاتنا يسود هذا النوع من السلطة غالبا، فليس من النادر أن تقنعني ابنتي أو زوجتي بتغيير القميص أو السروال، أو الاثنين لأنهما ليسا أنيقينmal assortis- عادة ما أقبل وأوافق على قدرتهما وتجربتهما في هذا المجال- وغالبا (وليس دائما) ما تتبع زوجتي تعليماتي عندما تسافر بالسيارة إلى مدينة لا تعرفها، لأنها تعرف معنى توجيهي كربان طائرة متقاعد.

وما دام لديها ذاكرة قوية في تذكر الأيام والأحداث، فأنا أقبل رأيها حول أسئلة مثل متى ستبتدئ الحفلة؟ وأنفذ عندما تذكرني لكتابة رسالة أو لشراء هدية عيد الميلاد.

السلطة الناجمة عن الموقعLa position:

هذا الشكل الثاني من السلطة يتولد من وضعية وموقع الشخص، ومن الذي يحدد الوظائف والمسؤوليات. فهذا النوع من السلطة يخول للربان التحكم في طاقمه وفي الركاب، وكذا لرئيس اللجنة أن يأمر عضوا فيها، وأيضا يمنح للمدرس أن يطلب من تلامذته أن يفتحوا صفحة معينة في مقررهم، وكذلك تجعل المدير يملي على كاتبته رسالة، وللقابض أن يحصّل مال الضرائب، ولسائق السيارة أن يطلب من ركابه ربط حزام السلامة.

تحتل سلطة (الموقع) مكانا هاما في عائلتنا، فمنذ زمن طويل ونحن متوافقون عن من سيقوم بالأعمال المنزلية، وعندما يأتي دوري لتهيئ العشاء ثلاث مرات في الأسبوع، تستطيع زوجتي وابنتي أن يسألنني تقديم مساعدتهما. إضافة إلى ذلك، بما أنني أمتلك مسؤولية التسوق أقبل بكل ممنونية طلب ابنتي بشراء نوع معين من عصير الفواكه.

نحن نتقبل كل هذه المهام. وكل منا يشارك في توزيع تلك المسؤوليات فمن خلال هذه التوافقات ذات الشكل التعاوني والتبادلي تستمد (سلطة-الموقع) قدرتها على التأثير في السلوكيات.

ج- السلطة الناجمة عن الاتفاقيات غير الرسميةinformelles :

ينتج هذا النوع من السلطة من العلاقات المتنوعة والتوافقات والتعاقدات التي يقيمها الناس من خلال تفاعلهم اليومي.

فعندما نعلن أن عودتنا للمنزل ستكون في ساعة محددة، ولم نستطع ذلك نهاتف، من أجل تجنب القلق والانزعاج نهائيا.

ومع مرور الوقت، أصبحت أنا وزوجتي متفقين على أن من يستيقظ أولا ينزل ليهيئ القهوة وإيفادها مع الجريدة إلى الغرفة، ومن يستفيق متأخرا يهيئ الحليب.

إن هذه السلطة الناجمة عن الاتفاقيات تستمد قوة تأثيرها من الالتزام الشخصي بما يتولد عن تلك السلطة.

د- السلطة الناجمة عن القوة Le pouvoir:

يتولد عن هذه السلطة المبنية على القوة: قوة الضبط، والهيمنة، والإكراه والإخضاع للآخرين، ودفعهم للتصرف ضد إرادتهم..

فبعض الآباء يستشهدون بالإنجيل وخاصة العهد القديم الذي يؤكد على ضرورة ترويض وضبط discipliner الأطفال ونادرا ما يستشهدون بالعهد الجديد الذي يدعوا لسلطة أبوية مبنية على التجربة:« وأنتم أيها الآباء، لا تثيروا حنق أبنائكم، بل تعودوا على تربيتهم بالتصحيحات des corrections والتأنيبات des Semonces المستوحاة من الله»[2].

وتعتبر التصحيحات والتأنيبات وسيلتان للتأثير على الآخرين من خلال مشاركتهم تجربته الخاصة وحكمته ومعرفته، وهما ينبنيان على التجربة وليس على القوة التي تسعى دائما للهيمنة على الآخرين[3].

أسطورة السلطة - المتسامحة» bienveillante:

يميل أبطال (التأديب-المفروض) نحو تلوين السلطة الناجمة عن القوة بالحب والتسامح، مما خلق بلبلة حول مفهوم التأديب والتسلط، حيث يدعون الآباء إلى استخدام تأديب-عقابي punitive بدون خطر، شرط استخدامه بطريقة صحيحة وحكيمة وبمحبة، وينادون بأفكار مفادها «قسوة بمحبة» dur avec amour و«الحكم الفردي المتسامح» autocratique avec bienveillance، و «أن تأمر بدون أن تجعل من نفسك ديكتاتورا» و «أن تعاقب بطريقة غير قاسية وغير عنيفة»، أنظر إلى هذا المقطع الذي يلفه الغموض واللاتحديد، وهو مأخوذ من تصريحات عالم النفس «جون روزموند»John Rosmond، الذي ينصح الآباء بأن يفرضوا الطاعة على أبنائهم وأن يصبحوا «المستبدون-المتسامحون»: «يمتلك المستبدون-المتسامحون سلطة لطيفة douces، ويعتقدون أن سلطتهم هي حجر الزاوية لإحساس الأطفال بالأمان، فهم ليسوا بحاجة للإيحاء بالتخويف من أجل ممارسة تأثيرهم على الأطفال، إنهم نافذون وليسوا متسلطين ومتحكمين... طبعا، يقيدون حرية أبنائهم ولكن لم يصلوا إلى درجة الطغاة Tyrans... والأطفال يحترمون آباءهم من خلال طاعتهم، وبما أن الآباء يحترمون أبناءهم فهم يلحون عليهم بأن يطيعوهم، فتعلم الطاعة ينمي استقلالية الطفل...والأطفال المرعوبون من آبائهم لا يطيعونهم، بل يذعنون لهم، عكس الأطفال المطيعون فهم ليسوا خائفين ولا مرعوبين من آبائهم»[4].

الهوامش

1- James. Clayton Dobson, preparing for Adolescence, vision House Santa Ana. CA.1978.

James. Clayton Dobson , the strong willed Child. Tyndale. House.1978.

2 - Bible, le Nouveau Testament, (Ephésiens, 6 :4).

3 – سأستشهد هنا بنموذجين من القرآن الكريم: مثلا: الأب (لقمان) فهو نموذج للسلطة عبر المعرفة (أنظر سورة لقمان)، أما أب إبراهيم عليه السلام فنموذج للسلطة عبر القوة، أنظر (سورة مريم من الآية 40 إلى الآية 46.

4 - Rosemound Benjamine, L'Autorité des parents dans la fimille, ed. de l'Hamme 1982.